الإيمان
في عصر
التَّشكيك

Copyrighted Material
Ophir Printers & Publishers

الإيمان في عصر التَّشكيك

تيموثي كَلِر

ترجمة

سعيد فارس باز

Copyrighted Material
Ophir Printers & Publishers

أوفير
ophir

Originally published in English under the Title: "**The Reason for God**".
Copyright © 2008 by Timothy Keller.
Author Photo © David Sacks.

Arabic Edition @ 2010 by Ophir Printers & Publishers - Jongbloed bv. Middle East. All rights reserved.

All rights reserved. No portion of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means – electronic, mechanical, photocopy, recording or any other – except for brief quotations in printed reviews, without prior permission of the publisher.

الإيمان في عصر التَّشكيك

الطبعة العربية الأولى ٢٠١٠

حقوق الطبع محفوظة

أوفير للطباعة والنشر

ص. ب. ٣٠٦٢، عمان ١١١٨١، الأردن

هاتف: ٧٦٨ ٥٦٦٥ ٦ ٩٦٢+

فاكس: ٧٦٨ ٥٦٣٩ ٦ ٩٦٢+

Email: info@ophir.com.jo

www.ophir.com.jo

رقم الإيداع: ٢٠١٠/٦/٢٢١٧

ISBN 978-90-5950-121-8

Copyrighted Material
Ophir Printers & Publishers

جميع الحقوق محفوظة، لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقلها، أو استنساخه بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

الإهداء... إلى كاثي الباسلة

Copyrighted Material
Ophir Printers & Publishers

المحتويات

المقدِّمة ٩

القسم الأوَّل : قفزةُ الشَّكّ

١. لا يُعقَلُ أن توجَدَ ديانةٌ حقيقيَّةٌ واحدةٌ فقط ٣١

٢. كيف يمكنُ أن يسمحَ إلهٌ صالحٌ بالألم؟ ٥٥

٣. المسيحيَّةُ سترةُ مَساجين ٧١

٤. الكنيسةُ مسؤولةٌ عن مقدارٍ كبيرٍ من الظُّلم ٩١

٥. كيف يُعقَلُ أن يُرسِلَ إلهٌ مُحِبٌّ أُناسًا إلى جهنَّم؟ ١١٣

٦. العِلمُ أثبتَ بُطلانَ المسيحيَّة ١٣٣

٧. لا يَسَعُكَ أن تأخذَ الكتابَ المقدَّس بحَرفيَّته ١٤٩

استراحة ١٧٣

Copyrighted Material
Ophir Printers & Publishers

القسم الثاني: دواعي الإيمان

٨. مفاتيحُ مسألة الله ١٨٧
٩. معرفةُ حقيقة الله ٢٠٧
١٠. مُشكلةُ الخطيَّة ٢٢٧
١١. الدِّينُ والإنجيل ٢٤٥
١٢. قصَّةُ الصليب (الحقيقيَّة) ٢٦١
١٣. حقيقةُ القيامة ٢٧٩
١٤. الرَّقصةُ السَّماويَّة ٢٩٥
خاتمة: أين نَذهبُ من هنا؟ ٣١٣
كلمةُ شكر ٣٣١
الحواشي ٣٣٣

Copyrighted Material
Ophir Printers & Publishers

المقدِّمة

أجِدُ افتقارَك إلى الإيمان مُزعِجًا مُقلِقًا.

دارث ڤايدر (Darth Vader)

العدوَّان كِلاهما على حقّ

ثَمَّة ثغرةٌ واسعةٌ اليومَ بين ما يُدعى عمومًا اللِّيبراليَّة والمُحافَظة. ولا يُطالِبك كلا الجانبَين بأن تُخالِفَ الآخرَ فحسب، بل بأن تَزدرِيَهُ أيضًا باعتباره (في أفضل الحالات) ضعيفًا، أو (في أسوإها) شرًّا. وهذا صحيحٌ على الخصوص حين يكونُ الدِّين هو المسألةَ الجاريَ بحثُها. فالتقدُّميُّون يُجاهِرون بأنَّ الأصوليَّة تنمو بسرعةٍ وعدمَ الإيمان يُوصَم بالعار. وهم يُنوِّهون بأنَّ السياسة قد تحوَّلت نحو اليمين المتطرِّف، تدعمُها الكنائس الكُبرى ويَحدوها المؤمنون المُحفَّزون المتمسِّكون بالعقيدة القويمة. والمُحافِظون يُندِّدون دون انقطاع بما يَرَونه مُجتمَعًا ينحو باتِّجاه الشُّكوكيَّة والنِّسبيَّة على نحوٍ مُتفاقِم. وهم يقولون إنَّ الجامعاتِ الكبرى والشركاتِ الإعلاميَّة والمؤسَّساتِ الممتازةَ دُنيويَّةٌ إلى

Copyrighted Material
Ophir Printers & Publishers

الحدِّ الأقصى، وهي تُسيطِر على الثقافة.

فما واقع الحال؟ أَللشُّكوكيَّة الهيمَنَةُ في العالَم اليوم، أم للإيمان؟ الجواب هو نعم بالنسبة إلى كِلَيهما. فالعَدوَّان كلاهما على حقّ. ذلك أنَّ الشكَّ والخوفَ والغضبَ تُجاه الدِّين التقليديِّ تَتَعاظَمُ قوَّةً وتأثيرًا. ولكنْ في الوقت نفسه يتنامى أيضًا الإيمانُ القويُّ القويمُ بمعتقدات الدِّين العريقة.

إنَّ عددَ الذين لا يرتادون الكنائسَ في أميركا وأوروبا يزداد باطِّراد.[١] وفي أثناء العقد الأخير، ازدادَ عددُ الأميركيِّين الذين يُدْلون في الاستطلاعات بعدم وجود تفضيل دينيٍّ لديهم ازديادًا صاروخيًّا، إذ تَضاعفَ مرَّتين أو حتَّى ثلاثًا.[٢] وقبل قرنٍ من الزمان، تحوَّلتْ معظمُ جامعات أميركا عن أساسٍ مسيحيٍّ رسميٍّ إلى أساسٍ دنيويٍّ علنيّ.[٣] ونتيجةً لذلك، فإنَّ لأصحاب المعتقدات الدينيَّة التقليديَّة مَوطِئَ قَدمٍ صغيرًا في المؤسَّسات ذات النُّفوذ الثقافيّ. ولكنْ رُغمَ تَزايُد عدد الذين يُعرِّفون بأنفسُهم باعتبارهم لا يملكون أيَّة خِيارات دينيَّة، فإنَّه تنمو في الولايات المتَّحدة الأميركيَّة- وتنفجرُ في أفريقيا وأميركا اللَّاتينيَّة وآسيا- كنائسُ مُعيَّنةٌ ذاتُ عقائدَ يُفتَرَضُ أنَّها مَهجورة بكتابٍ مقدَّس معصوم ومُعجِزاتٍ بائدة. حتَّى إنَّ قِسمًا كبيرًا من أوروبا يَشهدُ شيئًا من الارتفاع في نسبة حضور الكنائس.[٤] وعلى الرُّغم من دُنيويَّة معظم الجامعات والكلِّيَّات، فإنَّ الإيمانَ الدينيَّ ينمو في بعض الأركان في الجامعات. ويُقدَّر أنَّ ما بين ١٠ و٢٥٪ من جميع مُعلِّمي الفلسفة وأساتذتِها في أميركا هم مسيحيُّون مُلتزِمون، بعدما كانَتِ النِّسبة قبل ثلاثين سنة فقط أقلَّ من ١٪.[٥] وربَّما كانت عينُ الجامعيِّ البارز ستانلي فِش (Stanley Fish) على هذا الاتِّجاه السائد لمَّا أفادَ قائلًا: "حين تُوفِّيَ جاك دِريدا (Jacques Derrida) في تشرين الثاني (نوڤمبر) ٢٠٠٤، هاتَفَني

Copyrighted Material
Ophir Printers & Publishers

مُراسلُ صحيفةٍ أراد أن يعرفَ ما الذي سيَعقبُ النظريَّة العالية وثالوثَ العِرق والجنس والطَّبقة ليكونَ بؤرةً للنشاط الفكريِّ في الدوائر الجامعيَّة، فقلتُ حالًا وبغير تردُّد: الدِّين".[٦]

وبالاختصار، إنَّ العالَمَ يُستقطَبُ حَول الدِّين. وهو صائرٌ أكثر تَديُّنًا وأقلَّ تَديُّنًا في الوقت نفسه. ولقد سادَ حينًا اعتقادٌ وثيقٌ أنَّ البلدانَ الأوروپيَّة اللَّادينيَّة كانت رائدةَ باقي العالَم. وقد عمَّ التفكيرُ بأنَّ الدِّين سوف يَضمرُ عن أشكاله الأكثر قوَّةً وفوطبيعيَّةً (شكلًا خارقًا للطبيعة)، أو يتلاشى كلِّيًّا. غير أنَّ النظريَّةَ القائلةَ إنَّ التقدُّم التكنولوجيَّ يأتي بالعَلمنة الحتميَّة يجري التخلُّص منها، أو يُعاد النظر فيها جذريًّا.[٧] حتَّى إنَّ أوروپا قد لا تُواجِه مُستقبلًا لا دينيًّا، فيما المسيحيَّة تَتَنامى باعتدال والإسلامُ يتزايدُ أنصارُه.

المُعَسكران

إنِّي أتكلَّمُ من نُقطة استِشراف استثنائيَّة لهذه الظاهرة ذاتِ الحدَّين. فقد تربَّيتُ في كنيسةٍ لوثريَّة مُحافظةٍ شرقَ ولاية پنسلڤانيا الأميركيَّة. ولمَّا بلغتُ سنَّ المُراهقةٍ في ستِّينيَّات القرن العشرين، حان وقتُ حضوري صفَّ التثبيت، حيثُ درستُ مُقرَّرًا دام سنتَين وشملَ مُعتقداتِ المسيحيَّة وممارساتها وتاريخَها. وكان الهدفُ من ذلك تزويدُ الناشئة بفَهم أوفى للإيمان المسيحيِّ حتَّى يُمكنَهم التزامه علنيًّا. وقد كان مُعلِّمي في السنة الأولى خادمًا مُتقاعدًا. وكان تقليديًّا ومُحافظًا جدًّا، يتكلَّم أغلبَ الأحيان بشأن خطر جهنَّم ووجوبِ حيازةِ إيمانٍ فعَّال. أمَّا في السنة الثانية من الدُّروس، فكان المعلِّم أكليريكيًّا (رجلَ دينٍ) شابًّا تخرَّج توًّا في معهد اللاهوت. وقد كان ناشطًا اجتماعيًّا ساورَته شكوكٌ عميقةٌ كثيرة بشأن العقائد المسيحيَّة

Copyrighted Material
Ophir Printers & Publishers

العريقة. ففي السنة الأولى وقفْنا أمام إلهٍ قدُّوس وعادل لا يمكن أن يُصرَف غضبُه عنَّا إلَّا بجهد وكلفةٍ عظيمَين. وفي السنة الثانية، سمعنا عن روحِ مَحبَّةٍ في الكون تطلُبُ منَّا بصورةٍ رئيسيَّة أن نعملَ في سبيل حقوق الإنسانَ وتحرير المظلومين. فكأنَّنا عُلِّمنا مبادئَ ديانتَين مختلفتَين تقريبًا. وكان السؤال الرئيسيُّ الذي أردتُ أن أطرحَه على مُعلِّمَينا: "أيُّ واحدٍ منكما يكذب؟" ولكنَّ أبناء الرابعةَ عشرةَ يُعوزُهم شيءٌ من الجُرأة، فما كان منِّي إلَّا أن أبقَيتُ فمي مُطبَقًا.

بعد ذلك انتقلَتْ عائلتي إلى كنيسة أكثرَ محافَظةً تنتمي إلى طائفةٍ ميثوديَّة صغيرة. وعلى مدى بضعة أعوام قوَّى هذا الأمر ما يمكن أن يُدعى باسْم "طبقة نار جهنَّم" في تكويني الدينيّ، مع أنَّ الخادم والمخدومين هناك كانوا ألطفَ ما يكون على الصعيد الشخصيّ. ثُمَّ انتقلتُ للدراسة في إحدى تلك الجامعات الجيِّدة المُتحرِّرة الصُّغرى الواقعة في الشمال الشرقيّ، وسرعان ما بدأتْ تَصُبُّ الماءَ على نار جهنَّمَ المُضطرِمة في مُخيِّلتي.

لقد شهدتْ دوائرُ التاريخ والفلسفة ثورةً على الصَّعيد الاجتماعيِّ وتأثَّرتْ كثيرًا بالنظريَّة النَّقديَّة الماركسيَّة المُحدَثة (The Neo-Marxist Critical Theory) التي تبنَّتها مدرسةُ فرانكفورت. وكانت تلك بضاعةً خلَّابة في سنة ١٩٦٨. وكان مذهبُ الفعَّاليَّة الاجتماعيُّ (The Social Activism) جذَّابًا على نحوٍ خاصّ، كما كان نقدُ المجتمع الأميركيِّ البورجوازيِّ آسِرًا، غير أنَّ أُسُسَه الفلسفيَّة كانت مُربِكةً لي. وبدا لي أنِّي أرى أمامي مُعسكَرَين، وكان في كِلَيهما شيءٌ من الخَلَل الجذريّ. فالأشخاصُ الأكثرُ شَغَفًا بشأن العدالة الاجتماعيَّة كانوا من القائلين بالنِّسبيَّة على الصعيد الأخلاقيّ، فيما لم يبدُ أنَّ المُستقيمين خُلُقيًّا يَعنيهم

Copyrighted Material
Ophir Printers & Publishers

الطُّغيان المُتمادي في جميع أنحاء العالم. وقد انجذبتُ عاطفيًّا إلى السبيل الأوَّل... وأيُّ شابٍّ لا ينجذبُ إليه؟ حَرِّر المظلومين ونَمْ مع مَن شِئت! غير أنّي ما توقَّفتُ عن طَرْح السؤال: "إذا كانت الأخلاقيَّات نسبيَّة، فلِمَ لا تكونُ العدالةُ الاجتماعيَّة مثلَها أيضًا؟" فقد بدا هذا تَضارُبًا صارخًا في أساتذتي وأتْباعهم. ومع ذلك لَفَتَني أيضًا التناقُضُ الهائل في الكنائس التقليديَّة. فكيف يُمكنني أن أركن من جديد إلى نوع المسيحيَّة المألوفة ذاك الذي يؤيِّدُ العزلَ العرقيَّ في الجنوب وسياسةَ التمييز العُنصريِّ في جنوب أفريقيا؟ إذ ذاك بدأت المسيحيَّةُ تبدو مُصطنعةً جدًّا في نظري، رُغم أنّي لم أستطعْ أن أميِّز طريقةَ حياةٍ وفِكرٍ بديلةً قابلة للتطبيق.

ورُغم عدم معرفتي بواقع الحال آنذاك، فإنَّ هذه الروحيَّة "المُصطنَعة" نجمَتْ عن ثلاثة عوائقَ اعترضَتْ سبيلي. وفي أثناء دراستي الجامعيَّة، تآكلتْ هذه العوائق الثلاثة، وغدا إيماني أكثر حيويَّةً وتأثيرًا في الحياة. وقد كان العائق الأوَّل فكريًّا. إذ واجهَتني جَمهرةٌ من الأسئلة الصعبة بشأن المسيحيَّة: "ماذا نقول في الأديان الأخرى؟ وماذا عن الشرِّ والمُعاناة؟ كيف يُمكن أن يَدينَ إلهٌ مُحِبٌّ البشرَ ويُعاقبَهم؟ ولماذا عليَّ أن أعتنق أيَّ إيمانٍ أصلًا؟" ثُمَّ بدأتُ أقرأ كُتبًا ودراساتٍ جدليَّةً في كلا جانبَي هذه المسائل. وبِبطءٍ لكنْ بِثَبات، بدأتِ المسيحيَّةُ تَعني لي أكثرَ فأكثر. وباقي هذا الكتاب يَبسطُ الدواعيَ التي تجعلني أعتقدُ ما أعتقدُه بعد.

Copyrighted Material
Opinn Printers & Publishers

أمَّا ثاني العوائق فكان عائقًا داخليًّا شخصيًّا. فعندما يكون المرء صغيرًا يمكن أن تعتمدَ معقوليَّةُ إيمانٍ ما (إيمانٍ مقبولٍ ظاهريًّا) على سُلطة الآخرين، ولكنْ حين نبلُغُ سنَّ الرُّشد تدعو الحاجة إلى اختبارٍ شخصيٍّ مباشر أيضًا. وبينما كنتُ قد واظبتُ سنين على "تلاوة صلواتي"؛ وكان

يأخذُني أحيانًا ذلك الشعورُ الإلهاميُّ الجماليُّ بالرَّهبة والرَّوعة حِيالَ منظر بحرٍ أو جَبَل، لم أكُن قطُّ قد اختبرتُ حضورَ الله شخصيًّا. ولم يتطلَّب هذا معرفةً وافيةً للتِّقنيَّات المتعلِّقة بالصلاة، بل تطلَّب عمليَّةً أدَّت بي إلى إدراك احتياجاتي ونقائصي ومشاكلي. وقد كانت عمليَّةً مؤلمة، أطلقَتْ شرارتَها خَيباتٌ وسَقطات- كما هي الحال وكما يحدُثُ نموذجيًّا. ومن شأن الغوص في هذه كلِّها أن يستدعيَ كتابًا آخرَ مختلفَ النَّوع. ولكنْ لا بدَّ من القول إنَّ رحلاتِ الإيمان ليستِ البتَّة مجرَّدَ اختباراتٍ فكريَّة.

وأمَّا العائقُ الثالث فكانَ عائقًا اجتماعيًّا. ذلك أنِّي احتجتُ أمسَّ احتياج إلى العثور على "مُعسكَر ثالث"- إلى جماعة من المؤمنين بالسيِّد المسيح لديهم اهتمامٌ بالعدالة في العالَم، ولكنَّهم يؤسِّسونَه على طبيعة الله، لا على مشاعرهم الذاتيَّة الخاصَّة. ولمَّا عثرتُ على تلك المجموعة المؤلَّفة من إخوة- ومن أخوات (بالأهمِّيَّة نفسها تمامًا!)- بدأَتِ الأمور تتغيَّر بالنِّسبة إليَّ. ولم تسقطْ هذه العوائقُ سريعًا، ولا وَفقًا لترتيبٍ معلوم، بل كانتْ بالأحرى مُتضافِرة ومُتوافقة. ولم أتَصدَّى لهذه العوائق بأيَّة طريقةٍ مَنهجيَّة. إنَّما بالإدراك المُتأخِّر وحدَه (أي بعد انقضاء الأمر) أرى الآن كيف عملَتْ هذه العواملُ الثلاثة معًا. ولأنِّي كنتُ دائمًا أفتِّش عن ذلك المُعسكَر الثالث، بتُّ مَعنيًّا بتشكيل جماعاتٍ مسيحيَّةٍ جديدة ومَعنيًّا بإطلاقها أيضًا. وقد عنى ذلك انخراطي في الخدمة، وهكذا دخلتُها بعد بضع سنواتٍ من إنهاء دراستي الجامعيَّة.

Copyrighted Material
Ophir Printers & Publishers

المشهدُ من مَنهاتن

في أواخر ثمانينيَّات القرن العشرين، انتقلتُ إلى مَنهاتن، مع زوجتي كاثي

(Kathy) وأولادنا الثلاثة الصِّغار لإنشاء كنيسةٍ جديدة في حيٍّ لا يرتادُ مُعظم سكَّانه الكنائس. وفي أثناء مرحلة البحث قال لي الجميع تقريبًا إنَّها كانت مُغامرةً سخيفة. فالكنيسة تعني الاعتدال أو المحافظة؛ والمدينة كانت ليبراليَّة وسيِّئة الخُلُق مهتاجة. والكنيسة تعني العائلات؛ ومدينة نيويورك كانت تغصُّ بالعازبين الشُّبان والشابَّات و"الأسَر غير التقليديَّة". والكنيسة أوَّلَ كُلِّ شيء تعني الإيمان؛ غير أنَّ مَنهاتن كانت بلد الشكوكيِّين والنُّقَّاد والساخرين. وكان أهلُ الطبقة الوسطى- وهي السُّوق المألوفة لقيام كنيسة- يُغادرون المدينة هربًا من الجريمة وغلاء المعيشة. فلم يبقَ إلَّا المُتأنِّقون والغوغاء، الأغنياءُ والفُقراء. ومُعظم هؤلاء القوم يكتفون بالضَّحك حيالَ فكرة وجود كنيسة، كما قيل لي. فإنَّ رعايا الكنائس في المدينة كانوا يتضاءلون، وكان معظمهم يكافحون لمجرَّد صيانة مبانيهم.

وقد قال كثيرون ممَّن استقَيتُ منهم معلوماتي الأوليَّة إنَّ الكنائسَ القليلة التي حافظتْ على مُرتاديها فعلتْ ذلك بتكييف التعليم المسيحيِّ التقليديِّ وَفقًا لمزاج المدينة الذي يميلُ أكثر إلى التَّعدُّديَّة. "لا تقلْ للناس إنَّه ينبغي لهم أن يؤمنوا بالسيِّد المسيح؛ فذلك يُعدُّ تزمُّتًا هنا". وعبَّروا عن شكِّهم لمَّا أوضحتُ أنَّ معتقداتِ الكنيسة الجديدة ستَكونُ عقائدَ المسيحيَّةِ التاريخيَّةَ العريقة- عصمةَ الكتاب المقدَّس وألوهيَّةَ السيِّد المسيح ووجوبَ الولادة الجديدة- وهي كلُّها عقائدُ تُعدُّ عتيقةَ الطِّراز عند أكثريَّة النِّيويوركيِّين. لم يقُلْ لي أحدٌ قطُّ بصوتٍ عالٍ "أنتَ حالِمٌ واهم"، ولكنَّ ذلك ارتسمَ دائمًا على سيمائهم.

Copyrighted Material
Ophir Printers & Publishers

على الرُّغم من ذلك أطلَقنا "كنيسة الفادي المَشيَخيَّة". وفي أواخر سنة ٢٠٠٧ كان عددُ الحضور قد تخطَّى ٥٠٠٠ شخص، وقد أفرخَتِ

الكنيسة بضعَ عشرةَ رعيَّةً تابعةً لها في مناطق مجاورة من المدينة. وهذه الكنيسةُ مُتعدِّدةُ الأعراق، ونسبةُ الشباب فيها كبيرةٌ (متوسِّط العُمر فيها ثلاثون سنة تقريبًا)، يُشكِّل العازبون أكثرَ من ثُلثَيها. وفي أثناء ذلك، نشأتْ عشراتُ الكنائس ذات العقائد العريقة المُماثِلة، ومئاتٌ غيرها، في أنحاء الأقسام الإداريَّة الأربعة الأخرى من المدينة. وقد بيَّنتْ إحدى الدِّراسات أنَّه في بضعة الأعوام الأخيرة تأسَّست أكثرُ من مئة كنيسة في مدينة نيويورك على أيدي مسيحيِّين من أفريقيا وحدَها، الأمرُ الذي أذهلَنا كما أذهلَ سوانا.

وليست نيويورك وحدَها في ذلك. ففي خريف عام ٢٠٠٦، أدرجت مجلَّة "**ذي إيكونومست**" (The Economist) تقريرًا عنوانُهُ الفرعيُّ "**المسيحيَّة تنهار في كلِّ مكان ما عدا لندن**" (Christianty is Collapsing Everywhere but London). وكان بَيت القصيد في تلك المقالة أنَّه على الرُّغم من حقيقة كَونِ حضور الكنائس والاعتراف بالإيمان المسيحيِّ آخِذَين في الهُبوط عموديًّا عبر بريطانيا وأوروبا، كان كثيرون من أصحاب المِهَن الشباب (والمُهاجِرين الجُدد) في لندن يَتقاطرون إلى كنائسَ إنجيليَّة.[٨] وذلك تمامًا هو ما أزالُ أشهدُه هنا.

هذا الأمر يؤدِّي إلى استنتاج غريب. فقد وصلْنا إلى لحظةٍ حضاريَّة فيها يشعر الشُّكوكيُّون والمؤمنون جميعًا بأنَّ وجودَهم في خَطَر؛ لأنَّ الشُّكوكيَّة الدُّنيويَّة والإيمان الدينيَّ يشهدان كلاهما تقدُّمًا مُطَّردًا على

Copyrighted Material
Ophir Printers & Publishers

أصعدة قويَّة بارزة. وليس لدينا الآن مسيحيَّةُ* أوروبا الماضيَّةُ ولا المجتمعُ الدُّنيويُّ اللَّادينيُّ الذي سبقَ التنبُّؤُ بنشوئه مُستقبلًا، بل إنَّ لدينا شيئًا آخرَ مختلفًا كلَّ الاختلاف.

ثقافةٌ مُنقسِمة

قبل ثلاثة أجيال، كان معظم الناس يَرِثون إيمانَهم الدينيَّ بدلَ أن يختاروه بأنفسهم. وكان السَّواد الأعظم من الناس ينتمون إلى واحدةٍ أو غيرها من الكنائس البروتستانتيَّة التاريخيَّة العريقة، أو إلى الكنيسة الكاثوليكيَّة ومثيلاتها. أمَّا اليوم، فإنَّ الكنائس البروتستانتيَّة ذات الإيمان المُتوارَث والثقافة المُتَّبعة، تلك التي باتَ يُطلَق عليها تعبيرُ "كنائس الخطِّ القديم"، تَهرمُ وتخسرُ أعضاءَها بسرعة. والناس يختارون، بدلًا من ذلك، حياةً لادينيَّة، أو روحانيَّةً مُنشأةً ذاتيًّا وغير تابعة للمؤسَّسات القائمة، أو جماعاتٍ دينيَّةً عريقةً تُشدِّد على الالتزام الدقيق وتتوقَّع من أعضائها حُصولَهم على اختبار "التجديد"، أو الولادة الجديدة. وعليه، فإنَّ الناس صائرون- على طرفَي نقيض- إمَّا أكثر تديُّنًا وإمَّا أقلَّ تديُّنًا في آنٍ معًا.

ولمَّا كان الشكُّ والإيمان كلاهما آخِذَين في التقدُّم، فإنَّ حديثَنا السياسيَّ والعامَّ في شؤون الإيمان والأخلاق قد بات في ورطةٍ ومُنقسمًا في العُمق. والحروبُ الثقافيَّة حاميةُ الوطيس، حيث المشاعرُ مُتأجِّجة

Copyrighted Material
Ophir Printers & Publishers

* تجدر الإشارة هنا إلى أنَّ المؤلِّفَ استخدمَ الكلمةَ الإنكليزيَّة (Christendom) والتي تحمل معنى المسيحيَّة كنظام مؤسَّسيّ، وليس الكلمةَ الإنكليزيَّة (Christianity) والتي تعبِّر عن المسيحيَّة كإيمانٍ ومُعتقَداتٍ جوهريَّة (الناشر).

والخُطَب ناريَّة، بل هستيريَّة أيضًا. فالذين يؤمنون بالله والمسيحيَّة مُنطلقون كي "يفرضوا معتقداتهم على الآخرين" و"يُرجعوا عقارب الساعة بالعكس" إلى زمان أقلَّ تنويرًا. والذين لا يؤمنون هم "أعداء الحقّ" و"المموِّنون الرئيسيُّون للنِّسبيَّة والإباحيَّة". ونحنُ لا نحاجُّ الفريقَ الآخر، بل نشجبُ ونُندِّد.

لدينا طريقٌ مسدودٌ بين قوى الشكِّ والإيمان المُزدادةِ قوَّةً، ولن يُحَلَّ هذا بمجرَّد الدَّعوة إلى مزيدٍ من الكياسة والحوار. فإنَّ المُجادلات تتوقَّف على حيازة نقاطٍ مرجعيَّة مقبولة عمومًا يستطيع كلا الفريقَين أن يُحيلَ الآخر إليها. وحين تَتَضاربُ مفاهيمُ الحقيقة الجوهريَّةُ، يَصعبُ العثورُ على أيِّ شيءٍ يُعوَّل عليه. وخير تعبيرٍ عن ذلك عُنوانُ كتاب ألاسدَير ماكإنتاير (Alasdair MacIntyre) "**عدالةُ مَن؟ أيَّةُ عقلانيَّة؟**" (Whose Justice? Which Rationality?). فمشاكلنا لن تَتبدَّد بسهولة.

كيف يَسَعُنا أن نجدَ طريقًا نمضي فيه إلى الأمام؟

أوَّلًا، ينبغي لكِلا الطَّرفَين أن يُقرَّا بأنَّ الإيمانَ الدينيَّ والشُّكوكيَّة كلَيهما يتعاظمان. فعلى الكاتب المُلحِد سام هَرِس (Sam Harris) وقائد حركة **اليمين الدينيِّ المتطرِّف** (Religious Right) بات روبرتسون (Pat Robertson) أن يعترفا كلَيهما بأنَّ جماعتَه قويَّةٌ ومُزدادةٌ في التأثير. ومن شأن هذا أن يُقصيَ الحديث الذاتيَّ المُستشري في المُعسكرَين كلَيهما، وأعني القولَ إنَّ المعسكر ذاك سيَصير بائدًا عن قريب إذ يَكتسحه المُعسكرُ المُعارِض. إنَّما لا شيءَ من ذلك مُمكنٌ بصورة وشيكة. وإن كَفَفنا عن قول أمورٍ من هذا النَّوع لأنفسنا، فقد يجعلُ ذلك كلَّ واحدٍ أكثر لُطفًا وسعةَ صدرٍ تُجاهَ الآراء المُناقِضة.

Copyrighted Material
Ophir Printers & Publishers

ثُمَّ إنَّ إقرارًا كهذا ليس مُطَمئنًا فحسب، بل يدفعُ إلى الاتِّضاع أيضًا. فما زال كثيرون من ذوي العُقول ذات المنحى الدُّنيويِّ يقولون واثقين إنَّ الإيمانَ المستقيمَ يحاولُ عبثًا "مقاومةَ مَدِّ التاريخ"، رُغمَ عدم وجود أيِّ دليل تاريخيٍّ على أنَّ الدِّين يتلاشى. وعلى المؤمنين بالدِّين أيضًا أن يكونوا أقَلَّ نبذًا للشكوكيَّة الدُّنيويَّة. إذ ينبغي للمسيحيِّين أن يتفكَّروا في حقيقة كَون قِطاعاتٍ كبيرةٍ جدًّا من المُجتمعات التي غلبَتْ عليها سابقًا الصبغة المسيحيَّة قد أدارَتِ القَفا للإيمان. ولا بدَّ أن يؤدِّيَ ذلك إلى فَحْصِ الذات. فقد ولَّى زمانُ التلميح المُتأدِّب برَفض الفريق الآخر. وبِتنا الآن في حاجةٍ إلى ما يتخطَّى ذلك... لكنْ ما هو؟

نظرةٌ ثانيةٌ إلى الشكّ

أودُّ أن أقدِّمَ اقتراحًا لمستُ ما آتاه من ثمرٍ كثير في حياةِ الشباب النيويوركيِّين على مرِّ السِّنين. فأنا أُوصي كِلا الفريقَين بالنَّظر إلى **الشكِّ** بطريقةٍ جديدة جَذريًّا.

ولْنَبدأْ بالمؤمنين. إنَّ إيمانًا لا تُساوِرُه بعضُ الشُّكوك يُشبِهُ جسمًا بشريًّا ليست فيه أجسام مُضادَّة. فالأشخاصُ الذين يسلُكونَ سبيلهم في الحياة بابتهاج؛ وهُم أكثرُ انشغالًا أو لامُبالاةً من أن يطرحوا أسئلةً صعبةً عن أسباب إيمانهم بما يؤمنون به، سيَجدون أنفُسهم بِلا دفاع عندما يُواجِهون إمَّا اختبارًا مأساويًّا وإمَّا أسئلةً فاحصة من قِبَل شكوكيٍّ ذكيّ. ورُبَّما انهار إيمانُ شابَّةٍ بين عشيَّةٍ وضُحاها تقريبًا إنْ كانتْ قد أخفقَتْ على مرِّ السنين في الإصغاء برَوِيَّةٍ إلى شكوكها الخاصَّة التي لا ينبغي نَبذُها إلَّا بعد كثير من التفكير.

Copyrighted Material
Ophir Printers & Publishers

القسم الأوَّل

قفزةُ الشَّكّ

Copyrighted Material
Ophir Printers & Publishers

١

لا يُعقَلُ أن توجَدَ ديانةٌ حقيقيَّةٌ واحدةٌ فقط

قالتْ بلير (Blair)، ابنةُ العشرين المُقيمةُ في مَنهاتن: "كيف يُعقل أن يوجَدَ إيمانٌ حقيقيٌّ واحدٌ فقط؟ من العجرفة أن تقولَ إنَّ ديانتَك مُتفوِّقةٌ، فتُحاولَ أن تهدِيَ كلَّ إنسانٍ آخرَ إليها. يقينًا أنَّ جميعَ الأديان خيِّرةٌ بالتَّساوي وفعَّالةٌ لتَلبيةِ حاجاتِ أتْباعها".

وأضافَ جِيوف (Geoff)، وهو بريطانيٌّ في العقد الثالث يقيمُ في نيويورك أيضًا: "ليسَتِ الحصريَّة (Exclusivity) الدينيَّة ضيِّقةَ الأفق فحسْب، بل هي خَطِرةٌ أيضًا. فإنَّ الدِّين قد أدَّى إلى ما لا يُوصَفُ من النِّزاع والانقسام والصِّراع. وربَّما كانَ هو أكبرَ عدوٍّ للسَّلام في العالم. فإنِ استمرَّ المسيحيُّون في الإصرار على أنَّهم يملكون "الحقَّ"– وإذا حذا حذوَهم أيضًا أتْباعُ الديانات الأخرى– فإنَّ العالَم لن يعرف السلام".[١]

Copyrighted Material
Ophir Printers & Publishers

في أثناء قرابة العقدَين اللَّذَين قضيتُهما في نيويورك، أتيحَتْ لي فُرصٌ كثيرةٌ كي أسألَ أشخاصًا: "ما المُعضلة الكُبرى التي تُواجِهُها في المسيحيَّة؟ ماذا يُقلقُكَ أكثرَ الكُلِّ بشأن عقائدها أو كيفيَّة ممارستها؟"

وواحدٌ من أكثر الأجوبة تكرارًا بين ما سمعتُه على مرِّ السِّنين يُمكن تلخيصه بكلمة واحدة: الحصريَّة.

وقد دُعيتُ مرَّةً لأكونَ المُمثِّل المسيحيَّ في مُناقشةٍ عامَّة بمعهدٍ محلِّيٍّ مع حاخام يهوديٍّ وإمام مُسلِم، حيث طُلِبَ إلى المناقشين أن يَبحثوا في الفوراق بين دياناتهم. وكانَت المحادثةُ تتَّسمُ باللَّياقة والذَّكاء والاحترام في آنٍ معًا. وقد أكَّدَ كلُّ مُتكلِّم وجودَ فوارقَ مهمَّةٍ بين الدِّيانات الكُبرى يَصعُبُ التوفيقُ بينها. واتَّفقْنا جميعًا على المقولة التالية: "إنْ كانَ المسيحيُّون على حقٍّ بشأن كَون السيِّد المسيح هو الله، فإنَّ اليهودَ والمسلمينَ يُخفقون إخفاقًا ذَريعًا في محبَّة الله كما هو بالحقيقة. أمَّا إذا كان اليهودُ والمسلمون على حقٍّ في قولهم إنَّ السيِّدَ المسيحَ ليس الله بل بالأحرى مُعلِّمٌ أو نبيّ، فإنَّ المسيحيِّين يُخفقون إخفاقًا ذَريعًا في محبَّة الله كما هو بالحقيقة". وكانَتِ النتيجةُ النهائيَّةُ أنَّه لا يمكُنُ أن نكونَ جميعًا على حقٍّ بالتَّساوي في ما يتعلَّق بطبيعة الله.

وقد بلغَ طُلَّابُ كثيرون غايةَ الانزعاج من ذلك. وأصرَّ أحدُهم على أنَّ ما يهمُّ هو أن تؤمنَ بالله وتكونَ أنت نفسُك شخصًا مُحبًّا. فلم يكنْ مقبولًا الإصرارُ على أنَّ ديانةً واحدةً تحوزُ فهمًا للحقِّ يفوقُ ما تحوزُهُ ديانةٌ أخرى. كما أنَّ أحدَ الطُّلَّاب نظرَ إلينا نحنُ رجالَ الدِّين وقال مُحبَطًا: "لَن نصلَ أبدًا إلى اختبارِ السلام على الأرض إنِ استمرَّ القادةُ الدينيُّون في إصدار تَصريحاتٍ حصريَّة كهذه!"

Copyrighted Material
Ophir Printers & Publishers

يُعتقَد على نطاقٍ واسع أنَّ واحدًا من العوائق الرئيسيَّة للسَّلام العالميِّ هو الدِّين، ولا سيَّما الأديان الكُبرى بدَعاواها الحصريَّة من حيثُ التفوُّق. وقد يُدهشُك أنِّي أوافق على هذا رُغم كَوني خادمًا مسيحيًّا. فإنَّ الدِّين، على وجه العموم، يميلُ إلى إنشاء مُنحدَرٍ زَلِقٍ في القلب. وكلُّ دينٍ يُعلِّمُ أتْباعَه بأنَّ

لديهم "الحقَّ"، الأمرُ الذي يؤدِّي بهم على نحوٍ طبيعيٍّ إلى الشُّعور بأنَّهم مُتفوِّقون على ذوي المُعتقدات المختلفة. ثُمَّ إنَّ كلَّ دين يقول لأتْباعه إنَّهم يَخلُصون ويرتبطون بالله من خلال ممارستهم المُتفانية لذلك الحقّ. ويَدفعُهم هذا للانفصال عن الذين هم أقلُّ تقوى وطهارةً في الحياة. لذلك يَسهُلُ على جماعةٍ دينيَّةٍ ما أن تُقَولِبَ غيرَها من الجماعات وتُظهرَها بصورةٍ كاريكاتوريَّة. وما إنْ يوجَد ذلك، قد تنحدرُ تلك الجماعة بسهولة إلى تهميشِ غيرها من الجماعات، بل أيضًا إلى معاملتها باضطهادٍ أو تعسُّفٍ أو عنف.

وحالَما نُدرِكُ كيف يَطمسُ الدِّين السلامَ على الأرض، فماذا يمكننا أن نفعلَ حِيالَ ذلك؟ ثَمَّةَ ثلاثةُ أساليبَ يستخدمُها القادةُ المدنيُّون والثقافيُّون حول العالَم في التصدِّي للانقسام الذي يُنشئُه الدِّين. فهنالك دَعواتٌ إمَّا إلى حَظْر الدِّين، وإمَّا إلى شَجْبه، وإمَّا على الأقلِّ إلى جَعْله مسألةً خاصَّةً بصورة جذريَّة.[٢] وكثيرون من الناس يُعلِّقون آمالًا كبارًا على هذه الأساليب. ولكنَّ النبأ غيرَ المُسرِّ للكثيرين هو أنِّي لا أعتقد أنَّ أيًّا منها سيَكون فعَّالًا. بل إنِّي أخشى في الحقيقة أنَّها لن تزيدَ الوضْعَ إلَّا تفاقُمًا.

١. حَظْر الدِّين

ما تزالُ إحدى الطُّرق في التصدِّي لما يسبِّبه الدِّين من الخلاف والشِّقاق هي اللجوء إلى السَّيطرة عليه، أو حتَّى إلى حَظْره بقبضةٍ من حديد. وقد شهدَ القرنُ العشرون عددًا من المساعي الهائلة لإتمام ذلك. فإنَّ روسيا السوفياتيَّة والصِّين الشيوعيَّة والخمير الحُمر (في كمبوديا) وألمانيا النازيَّة (بطريقة مختلفة) كانت جميعًا عاقدة العزم على ضَبْط الممارسة الدينيَّة بحَزْم، في محاولةٍ لمنعها من شقِّ المجتمع أو إضعاف سُلطة الدَّولة. غير أنَّ النتيجةَ لم

Copyrighted Material
Onbir Printers & Publishers

تكنْ مزيدًا من السلام والوئام، بل كانت مزيدًا من الظُّلم والطُّغيان. ويُبرز السُّخريةَ المأساويَّةَ في هذا الوضع ألِستَر مَكْغراث (Alister McGrath) في تاريخه عنِ الإلحاد:

> أدَّى القرنُ العشرون إلى نشوءِ واحدةٍ من أعظم مُفارقات التاريخ البشريِّ وأشدِّها مُضايَقةً: أنَّ أفدحَ تعصُّبٍ وعُنفٍ في ذلك القرن مارَسَهما أولئك الذين كانوا يعتقدون أنَّ الدِّين يُسبِّب التعصُّبَ والعُنف.[٣]

وقد سار يدًا بيَد مع تلك المساعي اعتقادٌ واسعُ الانتشار في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين أنَّ الدِّينَ سيَضعُفُ ويتلاشى إذ يصيرُ الجنسُ البشريُّ أكثرَ تقدُّمًا على الصَّعيد التكنولوجيّ. ورأى هذا الرأيُ أنَّ الدِّين قام بدَورٍ ما في التَّنمية البشريَّة. فقد كُنَّا في ما مضى بحاجةٍ إلى الدِّين ليُساعدَنا على مواجهة عالَمٍ مُروِّعٍ مُبهَم. ولكنْ إذ صِرْنا أكثرَ تقدُّمًا على الصعيد العلميِّ وأقدرَ على فَهْم بيئتنا والتحكُّم فيها، تَتَضاءَلُ حاجتُنا إلى الدِّين، على حدِّ ما اعتَقدَ البعض.[٤]

غير أنَّ ذلك لم يحدُثْ، و"طَرْحُ العَلمانيَّة" (Secularization Thesis) هذا لم يَعُدْ يَلقى قبولًا رائجًا.[٥] ففي الواقع أنَّ جميعَ الدِّيانات الرئيسيَّة يَزدادُ عددُ أتْباعها. ونموُّ المسيحيَّة، خصوصًا في العالَم النَّامي، هو نموٌّ انفجاريّ. فعدَد الأنكليكانيِّين في نيجيريا وحدَها يبلغُ ستَّة أضعاف عددهم في الولايات المتَّحدة الأميركيَّة. وفي غانا مَشيَخيُّون يفوقُ عددُهم ما في الولايات المتَّحدة وسكوتلندا معًا. أمَّا في كوريا فقد ارتفعتْ نسبة المسيحيِّين من ١٪ إلى ٤٠٪، في غضونِ مئة سنة، ويعتقدُ الخُبراءُ أنَّ الأمرَ عينَه سيَحصلُ في الصِّين. فإنْ صارَ في الصِّين نِصفُ مليار مسيحيٍّ بعد

Copyrighted Material
Ophir Printers & Publishers

خمسين سنة من الآن، فإنَّ ذلك سيُغيِّرُ مجرى التاريخ البشريّ.[٦] وفي أغلب الحالات، ليسَت المسيحيَّةُ التي تشهَدُ نُموًّا مُمثِّلةً لنَماذجَ دُنيويَّةٍ وسطحيَّةِ الإيمان، كالتي تكهَّنَ بها علماء الاجتماع، بل هي بالأحرى نوعٌ حيٌّ من الإيمان فائقٌ للمألوف، يصحبُه إيمانٌ بالمعجزاتِ وسلطةِ الكتاب المقدَّس والولادةِ الجديدة الشخصيَّة.

وبفَضل حيويَّة الإيمان الدينيِّ في العالَم، فإنَّ المجهوداتِ المبذولةَ لقَمعه أو ضَبْطه غالبًا ما تؤولُ إلى جَعْله أقوى فحسْب. فلَمَّا طردَ الشُّيوعيُّون الصِّينيُّون المُبشِّرين الغربيِّين من الصِّين بعد الحرب العالميَّة الثانية، خُيِّلَ إليهم أنَّهم يُوجِّهون إلى المسيحيَّة في الصِّين ضربةً قاضية. ولكنَّ هذا التحرُّك لم يؤدِّ إلَّا إلى جَعْل قيادةِ الكنائس الصِّينيَّة محلِّيَّةً وطنيَّةً جدًّا، ومن ثَمَّ آلَ إلى تَقْويَتها.

ليس الدِّينُ مجرَّدَ أمرٍ وقتيٍّ ساعدَنا على التكيُّف مع بيئتنا، بل هو بالأحرى عنصرٌ ثابتٌ وجوهريٌّ بالنِّسبة إلى الوضع البشريّ. وهذا دواءٌ مُرٌّ يصعبُ أن يبتلعَه اللَّادينيُّون. فكلُّ امرئ يُريدُ أن يحسبَ أنَّه يسيرُ في الاتِّجاه السائد، وأنَّه ليس مُتطرِّفًا أو مُتزمِّتًا. غير أنَّ المعتقداتِ الدينيَّةَ الناشطة تَسودُ العالَم. وليس من سببٍ يدعو إلى توقُّعِ حصولِ تغييرٍ في ذلك.

Copyrighted Material
Ophir Printers & Publishers

٢. شَجْبُ الدِّين

ليس الدِّينُ راحلًا، ولا يُمكن إضعافُ سُلطته بسَيطرة الحكومة عليه. ولكنْ، ألا نستطيع- من خلال التعليم والمُجادلة- أن نهتديَ إلى سُبُلٍ بها نَعوقُ اجتماعيًّا الأديانَ التي تَزعمُ أنَّها تملكُ "الحقَّ"، والتي تُحاولُ أن تَهديَ الآخرين

إلى عقائدها؟ ألا نستطيعُ أن نعثُرَ على طُرقٍ بها نَضطرُّ جميع مواطنينا إلى الاعتراف بأنَّ كلَّ دينٍ يؤمنُ به الناس ما هو إلَّا واحدٌ من عدَّة سُبُلٍ صحيحةٍ بالتَّساوي تؤدِّي كلُّها إلى الله، وواحدةٌ من طرائقَ مُتماثلةٍ للعَيش في العالَم؟

إنَّ هذا الأسلوبَ يُوجِدُ بيئةً فيها يُعدُّ إدلاءُ المرء بتصريحاتٍ دينيَّة حصريَّة أمرًا مخالفًا للتَّنوُّر والتأدُّب، حتَّى في الأحاديث الشخصيَّة. ويتمُّ لهذا الأسلوبِ ذلكَ الأمرُ (إقصاءُ مَن يُدلون بتصريحاتٍ حصريَّة) بأن يطرَحَ بديهيَّاتٍ مُعيَّنةً ويُعيدَ طرْحَها ممَّا يؤولُ في الأخير إلى إشاعة حسٍّ فِطريٍّ عامّ. وأولئك الذين يَحيدونَ عن تلك البديهيَّات يُوصَمون بأنَّهم مجانين أو ذوو خَطَر. وعلى خلاف الاستراتيجيَّة الأولى، يُحقِّقُ هذا الأسلوبُ بعضَ النتائج في التصدِّي للتَّفرقة التي يُحدِثُها الدِّين. ولكنْ من غير المُمكِن أن يُحرزَ هذا الأسلوبُ النجاحَ في نهاية المطاف؛ إذ إنَّ في لُبِّه يكمنُ تضارُبٌ فتَّاك- بل ربَّما نوعٌ من النِّفاق- سوف يؤدِّي في الأخير إلى انهيار طريقة التفكير هذه. وفي ما يلي بعضٌ من هذه البديهيَّات، تَصحبُها المُشكلة المتعلِّقة بكلٍّ منها.

"جميع الدِّيانات الرئيسيَّة صحيحةٌ على السواء، وهي جوهريًا تُعلِّمُ تعليمًا واحدًا".

هذا التوكيد شائعٌ جدًّا بحيثُ إنَّ أحدَ الصَّحافيِّين كتبَ مؤخَّرًا أنَّ أيَّ شخصٍ يعتقدُ أنَّ "هنالك أديانًا دُنيا" هو مُتطرِّف يمينيّ.[٧] أتُريدُ حقًّا أن تقولَ

Copyrighted Material
Ophir Printers & Publishers